(2)

عن مسرحيته المجهولة

obeikandl.com

obeikandl.com

"لروايةِ ابنِ الرافعيِ مَلاحةٌ تَصبو إليها أنـفـسٌ وعُيُونُ"

محمود سامي البارودي

منذ قرأت حديث العريان في كتابه (حياة الرافعي) عن تراث الرافعي المجهول؛ وأنا مُولعٌ بالبحث عن أعماله المستترة التي لم تُنشر في كتبه، فتوفرت لديَّ مقالات كثيرة نَشَرَها في صحف ومجلات مختلفة، غير أن ما يلفت النظر أن كثيرًا من هذه المقالات قد ضاع منه في خضم الحياة، ومنها ما عزف عن نشره لتغير الأحوال السياسية وتقلبات الأحزاب، وكلها تخضع الآن للمراجعة والدراسة قبل نشرها.

على أنَّ عبارة فجأتني قرأتها في (ديوان الرافعي) أثارت فضولي واستولت على تفكيري؛ فقد وردت عدة أبيات نُسبت إلى رواية له تُسمَّى (موعظة الشباب)، وجاء في هامش الكتاب:" هذه الرواية هي أول رواية تمثيلية مطبّقة على دروس الأخلاق العصرية، وهي فوق ذلك تمتاز بروح الشعر الطائفة في كل معانيها، وستطبع قريبًا بعد تمثيلها إن شاء الله"[1]

(1) انظر: ديوان الرافعي تحقيق ياسين الأيوبي ص 469.

أخذت أُقلِّب ما لديَّ من كتبٍ تناولت حياة الرافعي علِّي أجد خيطًا هاديًا؛ فوقفت عند الكاتب العراقي الأستاذ مصطفى البدري على عبارة في معرض حديثه عن آثار الرافعي: "موعظة الشباب، وهي قصة تمثيلية ورواية في آن واحد، كتبها شعرًا ونثرًا.. كما أعلن عنها بأنَّ روح الشعر تنبع في كل فصل من فصولها، وقد وقفت على رسالة للمرحوم سلامة حجازي يطلبها منه إليه؛ كي يتمكن من عرضها وتمثيلها، ويظهر أن المنية قد تخطفته قبل أن ينظر فيها، وربما بقيت ضمن مخلفاته"[1]

اتصلت بالعميد سليمان الرافعي لأسأله عن الرواية – وفي مخيلتي أنها رواية بالمفهوم الحديث وليست مسرحية – فأكَّد لي أنه لأول مرة يعرف أن لجدِّهِ رواية أو مسرحية؛ فولَّيت وجهي شطر دار الكتب المصرية العامرة؛ غير أني لم أجد فيها مطلبي، لكن شيئًا غريبًا حدث!!

لقد برزت لي نسخة يتيمة لمسرحية أخرى باسم (حسام الدين الأندلسي) مُسجَّلة تحت رقم (ز 8482) في أربع وستين صفحة، يشير غلافها إلى أنها من الطبعة الثالثة سنة 1321 هـ؛ فحصلت على نسخة منها.. لكن زادت حيرتي أكثر!

كان لابد من الرجوع إلى المصادر الببلوجرافية والمسرحية المعتبرة للوقوف على أية معلومات بشأن (موعظة الشباب)، وأيضًا لتوثيق نسبة

(1) راجع: الإمام مصطفى الرافعي، ص 458.

(حسام الدين الأندلسي) إلى الرافعي؛ فلم أجدها في معجم المطبوعات[1] ليوسف سركيس رغم إشارته إلى (تاريخ آداب العرب) و(ديوان النظرات)، وكذلك الحال في (معجم المؤلفين) لعمر كحالة الذي أورد بعض مؤلفات الرافعي وليس من بينها مسرحياته[2]

وبالرجوع إلى المصادر المسرحية وجدت أن الدكتور محمد يوسف نجم لم يذكر أية مسرحيات للرافعي في كتابه (المسرحية في الأدب العربي الحديث)، ولا الدكتور رمسيس عوض في (موسوعة المسرح المصري) البلوجرافية (1900 – 1930م)، ولا الدكتور سيد علي إسماعيل في (تاريخ المسرح في مصر)؛ لكن إشارة يسيرة وقعتُ عليها في معجم المسرحيات العربية والمعرَّبة (1848 – 1975م) للأستاذ يوسف أسعد داغر، يقول فيها:"حسام الدين الأندلسي: تأليف مصطفى سعيد الرافعي الطرابلسي اللبناني، شعرية نثرية في (7) فصول، تحكي مجد العرب في الأندلس، مكتبة الواعظ، 1903م"[3]

وثمة ملاحظات على ما كتبه داغر من الأهمية أن نسجِّلها:

أوّلا: تصنيفه لهذه المسرحية بأنها (شعرية نثرية)، أي أنها ليست شعرية خالصة– كما سنبين بعد قليل – وإن غَلَبَ عليها الشعر الذي أكثره

(1) انظر: 2/ 926.

(2) راجع ترجمته 12/ 256.

(3) انظر: ص 254

من التراث العربي وليس من نظم المؤلِّف.

ثانيًا: قوله إن الرواية تقع في (سبعة فصول)، والحقيقة أنها (ستة) إلا أن يكون قد بدا للرافعي حذف أحد فصولها عندما أعاد نشرها لسبب لا نعرفه.

ثالثًا: أن الطبعة التي وقف عليها هي طبعة مختلفة غير التي عثرنا عليها بدار الكتب المصرية؛ حيث قال إنها منشورة في مكتبة الواعظ، بينما النسخة الأخرى منشورة بالمطبعة العمومية، ويبدو أن الرافعي قد نشر المسرحية مرتين في العام 1903م.

رابعًا: قال إنها تحكي عن أمجاد العرب في الأندلس، والحقيقة إنها تحكي جانبًا من الصراع الإنساني لا عن أمجاد العرب كما ذهب الكاتب.

إلى هنا تبدَّد الأمل في العثور على مسرحية (موعظة الشباب)؛ فآثرت أن أعمل على إخراج الرواية الأخرى المتاحة؛ فما لا يُدرك كله لا يُترك كله!

وفي إطار التوثيق تواصلتُ مع المؤرخ والناقد المسرحي الدكتور عمرو دواره - بعدما علمت بانتهائه من إنجاز موسوعة ببلوجرافية عن المسرح المصري في تسعة آلاف صفحة وثَّق فيها نحو 4500 عرضًا مسرحيًّا - للتثبت من تمثيل (حسام الدين الأندلسي) أو (موعظة الشباب) على المسرح؛ والحقيقة أنه قام بجهد يُذكر فيُشكر، فقد أخبرني بأنه توصل من خلال مصادره إلى أن الرافعي لم تُمثَّل له أية مسرحيات، ولا توجد

سوى إشارة عابرة في معجم أسعد – كما أسلفنا – إلى نَص المسرحية فقط.

كان لابد من الرجوع إلى بعض الصحف الصادرة في هذه الفترة، فربما وجدتُ ما يُساعدني في هذا الشأن؛ ومن ثَمَّ توجهت إلى صحيفة الأهرام، وأجريت بحثًا في الأرشيف فتوافر لديَّ خبران متعلقان بمسرحية (حسام الدين الأندلسي)، ففي الصفحة الثانية من العدد الصادر بتاريخ 24 أغسطس 1903 نشر ما يلي:" ألَّف حضرة الشاعر المطبوع البليغ والكاتب الفاضل الشيخ مصطفى صادق الرافعي الكاتب في محكمة مصر الشرعية رواية تمثيلية سمَّاها رواية حسام الدين الأندلسي، وقد تصفَّحناها فإذا هي مكتوبة بعبارة بليغة ومدبَّجة بأشعار شائقة، وقد طبعها مؤلفها طبعة [....][1] وجعل ثمنها (5) قروش صاغ؛ فنُثنِّي على حضرته أطيب الثناء"[2].

ويبدو أن الرافعي أعاد نشر الرواية بعد ذلك بشهرين، وقام بتخفيض سعرها لتباع بـثلاثة قروش بدلًا من خمسة قروش، وهو السعر المشار إليه قبل ذلك[3]

(1) الكلمة غير واضحة إن كانت (الثانية) أو (الثالثة).

(2) الأهرام 24 أغسطس 1903 ص 2.

(3) جاء في الخبر الذي نشرته الصحيفة بتاريخ 30 أكتوبر 1903 ص 2:" طالعنا رواية حسام الدين الأندلسي الشهيرة تأليف حضرة الفاضل الشيخ مصطفى الرافعي؛ فإذا بها جديدة بمطالعة كل أديب، وتُباع بمكتبة أمين أفندي هندية بثلاثة قروش صاغ بدلًا من خمسة قروش تسهيلًا على الراغبين".

بعد رحلة شاقة ومضنية من البحث في مظانِّ المكتبات والكتب تبيَّن لي أن الرواية أو المسرحية نُشرت في عدة طبعات على النحو التالي:

الطبعة الأولى: نُشرت بالمطبعة العمومية سنة 1314هـ وهو ما يوافق 1896 أو 1897م[1]

الطبعة الثالثة (أ): طُبعت بالمطبعة العمومية بمصر سنة 1321هـ الموافق سنة 1903م، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها.

الطبعة الثالثة (ب): أشار مصطفى البدري إلى أنها طُبعت في نفس العام 1903م لكن بمكتبة الواعظ، وليس في العمومية.

---

(1) وقفنا على هذه المعلومة بعد الانتهاء من تحقيق المسرحية؛ حيث أخبرني الصديق الدكتور ياسر غريب أن أحد الباحثين قد نشرها في مجلة جذور الصادرة عن النادي الأدبي الثقافي بجدة، وبالرجوع إلى الشبكة العنكبوتية وجدت أن الأستاذ مصطفى يعقوب عبد النبي قد قام بنشرها في العدد (23) مجلد (10)، الصادر في صفر 1427 هـ = مارس 2006م، وقبل أن يصلني هذا العدد من المجلة قرأت مقدمة الباحث منشورة على أحد المواقع الأدبية، وتعليقًا عليها نشر أحد المهتمين بتراث الرافعي واسمه عاصم صورة لغلاف طبعة يقول إنها الأولى مكتوبًا عليه "تأليف حضرة الأديب الفاضل السيد الشيخ مصطفى سعيد الرافعي الطرابلسي المتداول تشخيصها جوق حضرة الأديب إسكندر أفندي فرح". [راجع الرابط: http://www.wadod.org/vb/showthread.php?t=2313]

الطبعة الرابعة: المنشورة بمطبعة الواعظ بمصر سنة 1322 – هـ 1905م[1].

وليس بين أيدينا الآن ما يؤكد أنَّ المسرحية قد نُشرت منذ العام 1905م إلى الآن سوى النشرة التي أشرنا إليها في الحاشيتين السابقتين، إلا أنها جاءت ناقصة صفحتين هما 93 و94 كما ورد في هامش المجلة التي نشرت المسرحية، فضلًا عن أن الباحث لم يحقق نسبة المسرحية إلى صاحبها، ولم يقم بعزو الأبيات إلى قائليها، ولم يُجرْ أي ضبط للنص أو يثبت أية فوائد على حاشيته.

كنتُ قد ظنَنتُ في بادئ الأمر– وإنَّ بعض الظنِّ إثمٌ – أنَّ (حسام الدين الأندلسي) و(موعظة الشباب) مسرحية واحدة؛ لكن الأبيات التي أوردها الرافعي في ديوانه من (موعظة الشباب) كانت كفيلة بأن تقطع الطريق على هذا الوهم، فبالرجوع إلى هذه الأبيات تبيَّن خلو (حسام الدين الأندلسي)[2] منها، وهو ما يعني أنهما روايتان مختلفتان في المضمون، وإن وصلتْ إحداهما إلينا وغابت الأخرى إلى أجل نرجو أن يكون قريبًا.

---

(1) وهي الطبعة التي اعتمد عليها الأستاذ مصطفى يعقوب عندما أعاد نشر المسرحية، راجع مجلة جذور، ص 277.

(2) انظر: ديوان الرافعي، مرجع سابق، ص 469.

لقد كان من عادة الرافعي أن يروج لكتبه سواء في مقالاته أو في كتبه المنشورة، وفي (وحي القلم) إشارات من مثل هذه، لكن ذكر المسرحية لم يَجرْ في أحد كتبه باستثناء ما ورد في ديوانه – كما أسلفنا – عن (موعظة الشباب) وهو الأمر الذي يُثير العجب والفضول معًا. وأَظنُ أنه لم يُرد الحديث عن هذه المسرحية لأحد هذه الأسباب:

أوّلا: لكونها من بواكير ما كتب، فبالنظر إلى الطبعة الأولى نجد أنه نشرها وعمره ما بين 16 – 17عامًا – (وُلد سنة 1880) – وهو الأمر الذي ينبغى ألا نغضَّ عنه الطرف عند النظر إلى المسرحية وتقييمها، ومعلوم أنه كثيرًا ما يتغاضى الكُتَّاب بعد نُضْجهم عن أعمالهم الأولى باعتبارها من التجارب الساذجة قبل أن تصقله الخبرات، ويتقن فنون الكتابة، ويتمرس في مجال الإبداع والتأليف.

ثانيًا: أنه كان من العيب– آنذاك – أن يكون الكاتب روائيًّا أو مسرحيًّا أو قاصًّا، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ الأستاذ (محمد حسين هيكل) لم يكتب اسمه على الرواية الأشهر (زينب) خوفًا من النقد، وأظنُّ أنَّ ذلك هو نفس السبب الذي دفع الرافعي إلى أن يوقع الرواية باسم (مصطفى سعيد الرافعي الطرابلسي) وليس باسم (مصطفى صادق الرافعي) كما اعتاد بعد ذلك، وهو نفس الأمر الذي اتبعه في كثير من أعماله المبكرة التي آمل أن أُقدِّمها للقارئ الكريم عن قريب بعد تحقيقها ودراستها ضمن الأعمال المجهولة له.

ثالثًا: ربما لم يجد الرافعي نفسه في كتابة المسرحية كما لم يجدها في كتابة القصة[1]، فإذا كان توفيق الحكيم قد بدأ حياته شاعرًا، ثم مسرحيًّا، فقاصًّا؛ فإن الرافعي قد بدأ هو الآخر شاعرًا، فمسرحيًّا، فقاصًّا، إلى أن انتهى به العمر كاتبًا من رواد المقال في العالم العربي. فلا غرو إذًا أن تغيب الجهود المسرحية للرجل عن أكثر مَنْ أرَّخوا لحياته لا سيما تلميذه العريان، ومن ثم غابت عن أعين النُّقاد ومؤرِّخي المسرح في مصر والعالم العربي حتى أعدنا نشرها.

ولعل سائلًا يسأل: فإذا كان الرافعي نفسه لم يحتفْ بتجربته المسرحية؛ فلماذا نُصرُّ على إعادة تقديمها في الحقل الأدبي بعد مرور أكثر من قرن على نشرتها الأخيرة في حياة المؤلف؟!

والواقع أنَّ هذا التساؤل وجيهٌ ومُتوقع من القارئ الواعي؛ والإجابة عليه يسيرة، فإننا نرمي من وراء نشرها إلى وضع الرافعي على خريطة المسرح العربي بعد كل هذا الغياب، على اعتبار أن هذه المسرحية سابقة على كثير من المسرحيات التي راجت بوصفها من بواكير المسرح العربي بشكل عام؛ ونحن لا نقول إن الرافعي قد فاق أقرانه في الأدب المسرحي، ولا أن هذه المسرحية من عيون الأدب العربي؛ وما ينبغي لنا وما نستطيع

(1) راجع: حياة الرافعي، ص 203، ومصطفى صادق الرافعي لكمال نشأت، ص 109.

أن نزعم ذلك؛ لكن الإنصاف يقتضي أن نذكر الرجل ولو بالنقد، فيكفيه أنه طرق عالم المسْرَح مستلهمًا التراث العربي وقت أن كان المسرح مفتونًا بالترجمات الغربية التي لا تتفق مع القيم المجتمعية.

ولعل من فوائد هذه النشرة الجديدة أنها ستُضيف إلى شعر الرافعي ما لم يتضمنه ديوانه المنشور؛ بل وإلى ديوان الشاعر الكبير محمود سامي البارودي الذي قدَّم لهذه المسرحية كما قدَّم لديوان (النظرات) الذي أصدره الرافعي في بدايات حياته أيضًا، فضلًا عن الكشف عن ثقافة الرافعي اللغوية والأدبية في تلك السنّ المبكرة.

على هامش المسرحية

لكنَّ أمورًا مهمة ينبغي الإشارة إليها عند الحديث عن هذه المسرحية التي نعيد تقديمها للقارئ؛ منها:

1) **وصفَ الرافعي روايته** بأنها "تشخيصية، أدبية، غرامية، حماسية"، ويبدو أن كلمة "تشخيصية" هنا للتفرقة بينها وبين القصص التي لا تتضمن حوارًا كحوار المسرح، أو التي لا تقبل التمثيل إلا بعد كتابة حوار، كما حشد المسرحية بالأبيات الغزلية والحماسية وأكثر فيها من الاقتباس من الشاعر العربي الأشهر عنترة بن شداد الذي جمع بين العشق والفروسية، وهو ما يتفق مع جو المسرحية.

2) **التقريظات**: قدَّم الشاعر محمود سامي البارودي لهذه المسرحية بعدة أبيات يقول فيها:

لروايةِ ابـنِ الرافعي مَلاحةٌ ... تَصبو إليها أنفسٌ وعُيُونُ
بَسَمَتْ معانيها فهُنَّ أَزَاهـرٌ ... وزَهَـتْ مَبَانَيها فَهُنَّ غُصُونُ
تصبي الحليمَ فيستطيرُ بِحسنِها ... طَرَبًا وتُلهي المَرْءَ وهْوَ حَزِينُ
جـادَتْ قريحتُهُ بِـدُرٍّ بيَانِهِ ... والبحرُ فِيهِ اللؤلؤُ المَكْنُونُ
فَلْيَتْلُها أبـنـاءُ مـصر فإنها ... أدبٌ يـروقُ بِحُسنِهِ ويزينُ

وهذه الأبيات لم أعثر عليها في ديوانه، ولم تكن تلك هي المرَّة الوحيدة التي قدم فيها أعمالًا للرافعي، فقد حمل ديوان (النظرات) عدة أبيات أخرى له يُثني فيها على شعر الرافعي، كما قدم للمسرحية الأستاذ أحمد محمد القوصي - المدرس بالمدارس الأميرية آنذاك - بمقطوعة شعرية أخرى.

3) **الجنس الأدبي**: جريًا على العادة المتبعة في ذاك الزمن، فقد أطلق الرافعي على هذا العمل اسم (رواية)؛ حيث جرت العادة حينها على تسمية القصة والمسرحية، وكذلك الأفلام - فيما بعد - نظرًا لارتباط المسرح بالأعمال الهزلية، وبطبيعة الحال كان ذلك مستساغًا

قبل فكِّ الاشتباك بين هذه الأجناس الأدبية واستقلال كلٍّ منها عن الأخرى بحدود فاصلة.

على أن هناك إشكالية أخرى لكون المسرحية حائرة بين الشعرية والنثرية، فهي وإن – طغى عليها الشعر – ليست شعرية بالنظر إلى ما كتبه شوقي وغيره؛ ولا نثرية بالنظر إلى كلاسيكيات المسرح النثري، ولكنها مزجت بين النثر والشعر في ضفيرة لم أجد لها شبيهًا.

4) **الأحداث**: تدور أحداث المسرحية المؤلفة من ستة فصول في أماكن مختلفة بالأندلس وبلاد المغرب، حيث كان لملك الأندلس ابنة اسمها الأميرة (سَلْمَى)، وقد أحبَّها الوزير (حازم) دون أن تعلم، ويئس من تمام هذا الزواج بسببٍ من كُرْه أخيها الأمير (حسام الدين) له، فدبَّر (حازم) مكيدة لـ(حسام الدين) الذي خرج في سياحة قاصدًا مصر، فأرسل إلى الأمير (غصوب) أمير كاظمة، يطلب إليه التخلص من (حسام الدين)، وتتوالى الأحداث ويصادف (حسام الدين) (صباح) ابنة الأمير (غانم)، ويعلم منها أنَّ ابن عمها (الغضبان) أراد الزواج منها فرفض والدها، ومن ثم قرر محاربة عمِّه من أجل إتمام الزواج، ثم أُسر (حسام الدين) بعد دفاعه عن صباح، وقتله (الغضبان) في المبارزة، وأُلقي في السجن حتى تم تخلِيصه، وأُخذ (غصوب) أسيرًا، وعوقب هو و(حازم)، وتزوَّج (حسام الدين) و(صباح) وتولَّى والدها الوزارة بديلًا لحازم.

5) **غلبت اللغة الفصحى على أسلوب الرافعي**، اللهم إلا في بعض المواضع النادرة التي استعمل فيها العامية، ويبدو أنه كان متأثرًا باللفظة القرآنية منذ صغره، فقد اقتبس منها في مواضع كثيرة كقوله على لسان الأمير حسام الدين لوالده:" وسأشرح لجلالتكم لتحكم فيه بما أراك الله"، وكقول الملك للخدم:" خذوه فغلوه".

6) **أجرى المؤلف على النثر ما يُجرى على الشعر من الضرورات كقول غصوب عن الغضبان:**"وأصبح فؤاده في حبها هائم"، وكقوله أيضًا لطارقة الليالي:" لا تفعل ذلك يا طارق الليال"؛ فجاء الكلام مسجوعًا على طريقة العرب الأقدمين، فبدا متكلّفًا في بعض المواضع.

7) يدلّ النَّص على دراية المؤلف المبكرة بلغة العرب وأيامهم وعاداتهم وأمثالهم.

8) جاء الحوار مطولًا بشكل مبالغ فيه في مواطن لو أوجز فيها وكثَّفَ لكان أفضل، والعكس في مواضع أخرى.

9) من الملاحظات المهمة التي تتوجب الإشارة إليها تلك التي أوردها الأستاذ مصطفى عبد النبي في تقديمه للرواية، حيث ذهب إلى القول بأن الرافعي قد تأثر بأحمد أبو خليل القباني[1] الذي اتجه تلقاء التاريخ العربي

(1) مجلة جذور، مرجع سابق، ص 280.

والإسلامي بعد أن ظلت المسارح مقتصرة على الترجمة عن لغات أجنبية مختلفة، فمثلت فرقته مسرحيات مثل: (عنترة) و(ولَّادة بنت المستكفي) و(الحاكم بأمر الله العباسي) [1] وغيرها من المسرحيات التي اتخذت من التاريخ مصدرًا لها.

عملي في خدمة النَّص

كنتُ مُخيرًا بين أمرين في تعاملي مع النصِّ: فإما أن أورده كما هو- مثلما فعل الأستاذ مصطفى عبد النبي - مع التوسع في التقديم والتعريف بالمسرحية بما يتناسب مع قيمتها التاريخية، وإما أن أضيف لها فوائد لغوية وأدبية، فكان أن اخترت الثانية حتى تتم الفائدة للقارئ العام والمختص على حدٍّ سواءٍ، ومن ثم قمتُ بشرح الكلمات الغامضة وتصحيح ما وقع فيها من أخطاء مطبعية، كما عزوتُ الأبيات إلى قائليها، وما سكتُّ عنه من العزو فالأرجح أنه من منظوم الرافعي ما لم يثبت غير ذلك فيما بعد.

ولم أقدِّم هذا العمل تمجيدًا للرافعي ولا ترويجًا لبضاعته؛ وإنما هو من باب الإنصاف وإحقاق الحق، وإعادة الأمور إلى نصابها، والمراد من

(1) انظر تاريخ المسرح، مرجع سابق، ص 157.

نشر هذا العمل المبكر هو وضع الرجل على خريطة المسرح؛ وإتاحته للدارسين باعتباره من أوائل من تنبَّهوا إلى أهمية تعريب النصوص المسرحية واستلهامها للتراث العربي والإسلامي اللذين عاش أديبنا منافحًا عنهما وذائدًا عن حياضهما.

obeikandl.com